عُشـــرون عامًا مـــن حكم فرســـان القدّيـــس يوحنّـــا لطـــرابلس الغـــرب 1531 – 1551 م

أ. ســـارة مفتاح عطيـــة ـ قســـم التاريخ ـ كلية الآداب الجوش
جامعة الزنتان

المُلخـــص :

كانت طرابلس الغـــرب في تلك الفترة تحت حكم الإســـبان ، وعندما توالت الأحداث علي الملك شارل الخامـــس قـــرّر أن يهب طرابلس لأي قـــوّة مسيحية تحافـــظ عليها وتقوم بالدفاع عنها وحمايتها ، وعندما طـــرد الأتراك فرسان القديس يوحنا أو فرسان مالطا من جزيرة رودس بتقديم طلب إلى الملك (شـــارل) ليتنازل لهم عـــن جـــزيرة مالطا ، ومن المعـــروف عن هـــذه المنظمة أنها منظمة معادية للإسلام والمسلمين ، وتتخـــذ المسيحية شعارًا لها ، وهنا سنحت الفرصـــة للملك الإسباني في التخلص من مســـؤولية الدفاع عن طرابلس ووافق على إعطاء الفرسان جزيرة مالطا بشـــرط توليهم الدفاع عن مدينة طرابلس ، وبالرغم من الوضع السيء الذي كانت تعانـــي منه المدينة إلا أن فرسان المنظمة قبلوا بهذا الشّـــرط واستلموا المدينة من الإسبان ، لتدخل طرابلس في مرحلة أخـــرى من الخـــراب والدّمار لمـــدّة عُشـــرون عامًا إلى أن استنجد أهلها بالبحارة الأتراك الذين قبلوا النّجدة وحاصـــروا طرابلس إلى أن استسلم من فيها من الفرســـان لتعـــود مدينـــة مسلمة بعد أربعين عامًا من حكم المسيحيين الإسبان وفرســـان القديس يوحنا .

Tripoli was in the west at that period under the rule of tha Spaniards , and when events took place on king Charles v , he decided to give Tripoli to any Christian force and protect it , and when the Turks expelled the knights of St . on the island of Malta , this organization known to be hostile to Islam and Muslims , and takes Christianity as its emblem here , the Spanish king had the opportunity to get rid of the responsibility of defending Tripoli and agreed to give the knights the island of Malta on the condition that they take over the defense of Tripoli, and despite the bad situation that the city was suffering from , the knights of the organization accepted this condition and received the city from the Spaniards to enter Tripoli at another stage from ruin and destruction for twenty years until its people sought the help of the Turkish sailors who accepted the rescue and besieged Tripoli until the cavalry in it surrendered so that a Muslim city would return after forty years of the rule of the Spanish Christians and the knights of st john .

المُقدمـــــــــــــة :

احتـلّ الإسبان طرابلس مـــــدة عُشـــــرون عامًا ، ثم منحوها لفرسان القديس يوحنا : (فُرســـان مالطا) ، وجـــاء هذا المنـح بعد ما تـــم طـــرد الفرســـان من جزيرة رودس ، فما كان من المرشد الأكبر للمنظمة إلا أن يطلب من الملك الإسباني جزيـــرة مالطا ، وهنا رأي الملك الإســـباني ونظرًا لتزايد النفقات على مدينـــة طرابلس إن يقوم بمنحها للفرسان مع جزيرة مالطا ، وعلى الرغـــم من رفض الفرسان في بادئ الأمر إلا أنهم قبلوا بهذا الشـرط وانتقلوا إلى مدينـــة طرابلس في عام 1531 م ، ولم يرض السّـــكان عن هـــذا الوجود المسيحي وظلوا يقاومـــون الفرسان الذين سرعـــان ما شـــرعوا في فـــرض الضرائب الباهظـــة علي الأهالي ومطاردة الأهالي وتهجيرهم من طرابلس مما دفـــع الكثير من الطرابلسيين إلى الفـــرار إلى تاجـــوراء ، وخاصـــة عندما استنجدوا بالعثمانيين وأرسل لهم الســـلطان العثمان سليمان مـــراد آغا ليقود عملية المقاومة ضد وجود فرســـان الهيئة (فرسان مالطا) ، وفي تلك الأثناء بـــرزت قـــوّة جديدة يقـــودها درغوت باشا الذي خلف بربروس ، وتوجه درغـــوت إلى القسطنطينية وطلب المساعدة من السلطان سليمان الذي زوده بأسطول كبير وعهد به إلى الأميرال سنان باشا ليحـــرّر طرابلس من القـــوّة المسيحية المسيطرة عليها ، وعندما وصل الأسطول وبـــدأ في حصار المدينـــة وقصفها استسلمت المدينة بمن فيها من فرســـان وعادت طرابلس مدينة إسلامية ، وعين سنان باشا مراد آغا أول حاكـــم عثمانـــي علي طرابلس .

خطـــــــة الدراســـــــة :

تم تقســـيم الدراســـة إلى أربـــع مباحث ، تناول المبحث الاول نشأة منظمة فرسان القديس يوحنا ومسمياتهم وموطنـــهم الأول ، أما المبحث الثاني تناول الوضـــع العام في طرابلس قبل وصـــول فرســـان القديس إليها ، وتناول المبحث الثالث تسليم طرابلـــس من قبل الإســـبان إلى فرسان القديس يوحنا ، وكان المبحث الرابع يتناول مرحلة الضعف والتراجع الواضح للمنظمة واستغاثة سكان طرابلس بالأتراك العثمانيون ، وبالنسبة للمصادر والمراجـــع ، فقد تم الاستعانة بعدد لا بأس به منها ومن أهمها الحوليات الليبية للمؤلف (شارل فـــيرو)، ومؤلفات: (أتوري روسي) التي تخـــص تاريخ ليبيا وبعض المصادر والمراجع والبحوث المنشـــورة باللغتين العربية والإنجليزية .

منهج الدراســــــــــة :

إن المنهج التاريخي الســــــــــردي (الاســــــــترادي) هو المنهج المتبع في هذه الدراسة ، فهو يقوم علي استرداد وقائـــــع وأحداث الماضي وتحليلها وتفسيرها ومقارنتها واستنباط النتائج منها .

المبحث الأول - من هـــم فرسان القديس يوحنا ؟ :

تأسست رهبانية القديس يوحنا سنة 1099 م ، وكانت تهتـــم بالعلاج واستقبال حجاج الأراضي المقدسة المسيحيين ، وقد انتبه الرهبان إلى ضرورة توفير الحماية للحجاج والدفاع عنهم ، وهكذا أضافـــوا في القـــرن الثاني عشر الخدمة العسكرية إلى الخدمة العلاجيـــــة ، ومنذ ذلك الوقت أصبح الدفاع عن المسيحيين الواجب الأساسي للفرسان (1) ، وقد كانت المنظمة في بدايتها ذات طابع متواضع للغاية ، ولكن كونها تأسست في غرضها علي مبادئ مسيحية حقيقة فقد نالت الإعجاب من العديد من الأشخاص المخلصين المتدينين الذين شاركـــوا في تعزيزها ، وهكذا نمت ببطء شديد في البداية ؛ ولكنها أصبحت فيما بعد قوة عظمي (2) .

ويذكر لنا (3) إن النظام المعروف الآن باسم هيئة فرسان مالطا كان قد تطور عن هيئة (أمالفيتانية AMALFITANA) الدينية التي كانت تتولي قبل الحروب الصليبية رعاية احد الملاجئ في القدس ومساعدة المعوزين خاصة الحجاج .

والجدير بالذكر هنا ان هذه المنظمة قد نالت علي عديد من المسميات ومنها اسم (الاسبيتارية) فقد ذكرها (4) في كتاب الاسبيتارية وعرفهم علي انهم منظمة دينية عسكرية نشئت في بيت المقدس في القرن الثني عشر الميلادي ، وكلمة الاسبيتارية هي تسمية عربية محرفة عن لفظة (hospitaliers) اي فرسان المستشفي ، أسسها بعض تجار مدينة أمانغي كجمعية خيرية في بيمرستان قرب كنيسة القيامة في بيت المقدس . وبالرغم من أن القيام على شؤون المستشفيات ظل هو الطابع الغالب على نشاطهم ، إلا أنه كان للفرسان مهام عسكرية (5) . ومن ثم فقد دخل هؤلاء تحت النظام الديـري البندكتي * المعروف في غرب أوروبا وصاروا يتبعون البابا في روما(6)

لقد اشتهر الفرسان بحقدهم تجاه الإسلام والمسلمين ؛ بل إن نشأتهم وتكوينهم كانت بهدف محاربة الإسلام ، وكانوا يملكون الجيوش والأساطيل وكانت لهم قـــوّة عسكرية كبيرة ، وينتقلون من بلد إلى آخـــــر لتحقيق أهدافهم الرامية إلى إيقاف الزحف الإسلامي (7) ، وقد اتخذت المنظمـــة في البداية من حب المسيحية والدّعوة إلى الخير شعارًا ما لبث أن تكشّـــف عن حقيقته وهو التعصب على المسلمين وإثارة الحرب

ضدهم وإباحة قتلهم(8) ، ويذكـــر (9) أن الهيئة قد تحوّلت في زمن الحروب الصليبية إلى منظمة دينية فرسانية وضعت تحت حماية القديس (يوحنا باتيسيا) وأطلق على أعضائها اسم الاسبتارية ، وعُـــرفوا- أيضا - باسم اليوحانيين في بعض الأوقات .

ومع مـــرور الزمن بدأت لمنظمة تتحـــوّل إلى تنظيـــم عسكري محض ، وتعهّدت بالدّفاع عن بيت المقدس فاقتطعت لنفسها بعض الأراضي وأقامت عليها ثكناتها وتنظيماتها العسكرية ، وعندما حـــرّر صلاح الدّين الأيوبي القدس طـــرد المنظمة منها سنة 1187 م ، فاضطرت إلى نقل مركزها إلى عكا وهناك بدأت تضرب المسلمين وتلحق بهم الأذى فلاحقها المسلمون وطردوها من عكا(10) ، ومن عكا انتقلوا إلى جزيرة رودس (التي طـــردهم منها الأتراك فيما بعد)، وكان شعارهم المعلن هو مواصلة الجهاد باسم المسيح للوصول إلى بيت المقدس مجدّدا وتأسيس دولة مسيحية في فلسطين ، أما دورهم الفعلي في أرض الواقع فلم يكن دينيا حقا ، ولم تكن المنظمة سوى مخلب تستخدمه إسبانيا لكي تخوض به حربها من بعيد دون أن تحـــرق يدها في مواقـــد شمال إفريقيا (11) ، وأسس الفرسان في جزيرة رودس مملكة مسيحية تحت رعاية البابا وحماية الملوك المسيحيين ، ثم مـــدوا نفوذهم على الجـــزر القريبة من رودس وقد اجتنبت هذه المؤسسة مبادئها الإنسانية التي أسست من أجلها وتحوّلت إلى عصابة من القراصنة في الحوض الشرقي من البحر المتوسط (12) ، وفي عام 1522 م ، تمكنت القوات العثمانية من طـــردهم من رودس ، فاتصلت قيادة هـــؤلاء الفـــرسان بعد ذلك بالملك الإسباني شارل الخامس مبدية رغبتها في جزيرة مالطا (13).

وهكذا تم التعريف بفرسان مالطا ومسمياتهم والأماكن التي احتلوها ، وقبل أن ندخل في صلب الموضوع – استيلاء فرسان القديس يوحنا علي طرابلس - لابد أن نلقي الضوء علي الوضع العام في طرابلس الغرب أثناء حكم الإسبان للمدينة ، وهذا ما سيتناوله المبحث الثاني .

المبحث الثاني – الوضع العام في طرابلس الغرب قبل اســـــتيلاء فرســـــان القديس يوحنّا عليها :

إن الثـــــراء الذي تمتعت به طـــــرابلس والذي كان يسبق الاحتلال الإسباني ، قد انتهي أمره ولم تعد طرابلس خلال العشر سنوات التي انقضت من حكمهم لها ذلك المركز التجاري المهم الذي كان يفـــوق تونس في حركته ونشاطه التجاري ، فبالإضافة إلى تحـــويل المدينة بمبانيها وشـــوارعها وأسواقها إلى أنقاض وأكـــوام من الحجارة وإلى الحصار المحكم المضروب حولها ، نجد الإسبان بعقليتهم

غير الاقتصادية قد فرضـــوا ضرائب احتكارية بلغت خمســـــون في المائة عـــــلاوة علي الرسوم المحلية الأخرى (14) ، وفي تلك الأثناء ظهرت قــوّة جديدة على الساحة بقيادة رجل يدعي خير الدين المعروف عند الأوروبيين باســـــم بربروس ، ويذكر (15) أن خير الدين قد احتل الجزائر وجعلها قاعدة لحركته البحرية، وسلّمه السلطان العثماني سليمان أسطولا قويا ليعمل تحت رايته ، وفي تلك الأثناء طلب الطرابلسيون الذين سئموا النير** الإسباني من خير الدين العمل علي سيطرته علي طرابلس ، ولكن هذه الفكرة لم تتحقق للطرابلسيين وقد أخذ الأمل يتبدد أكثر فأكثر بانتخاب الإمبراطـــــور شارل الخامس ملكا لإسبانيا سنة 1519 م ، وقد تضايق الطرابلسيون من تزايد السيطرة المسيحية عليهم .

كان العهد الإسباني في طرابلس عهد استبداد وظلم ، وشغلتهم جباية الأموال وفـــرض الضرائب عن القيام بأي إصلاح في البلاد ، وشُغل الناس بحرب الإسبان عن أعمالهم ومنعهم من متابعة نشاطهم في الزراعة والتجارة والصناعة(16) ، وخلال بضعة أعوام كانت المدينة قد أقفرت تدريجيا تحت مطرقة المقاومة اليومية وعمليات الهجرة المستمرة ، وإصرار الإسبان علي الاستئثار بالسوق لأنفسهم دون التجار الأجانب ، وأمام ظـــروف الكساد الشامل ، كان احتلال طرابلس يكلف الإسبان أضعاف المبلغ الذي تحصل عليه من أسواقها (17) ، كما عهد الإسبان إلى نهب المدينة وهجروا أهليها حتي عمها الخراب ، ومما زاد في خراب المدينة محاولة الإسبان إقامة أســـوار جديدة علي انقاض الأسوار القديمة ومنازل الأهالي ، فتعرضت المدينة إلى تبديل أجـــزاء مهمة في هيكلها ومعالمها(18) ، ومما يجدر ذكره أن الحامية الإسبانية عاشت طوال فترة الاحتلال في وضع حربي قلق ، متعرضة باستمرار لهجمات الأهالي الذين كانوا يبذلون الجهود لاسترداد المدينة ، وكما أن الإسبان لم يكونوا مهتمين بالمدينة وتطويرها خلال هذه الفترة بقدر انشغالهم بالدفاع عن أنفسهم فصرفوا جلّ الوقت في الأعمال الدفاعية وفي تحصين قلاع المدينة (19)، وخلال الأربع سنوات لوجود الإسبان في طرابلس وهربا من زيادة الخسائر المادية والبشرية ، ولضمان بقاء المدينة في حـــوزة المسيحيين عمد الملك الإسباني إلى إلحاقها بمملكة صقلية بحجة قربها منها ، فغدت المدينة مرتبطة مباشرة بحكومة نائب الملك المقيم في صقلية(20) ، ومن أجـــل تحســـــين الوضع المعيشي في طرابلس حاول الإسبان تشجيع الهجرة الاستيطانية إلى طرابلس ، فأصدر (هـوجو دي مونكادا) نائب الملك بصقلية منشـــورا يعلن فيه عن تقديم تسهيلات لمن يرغب في السفر والإقامة في طرابلس ، وبمقتضي هذه التسهيلات

تقدم المساكن الملائمة والأراضي المناسبة والإعفاء من الضرائب لمدة عشرة أعوام وتبرئة المهاجر من كل إدانة مدنية أو جنائية سابقة (21) ؛ ولكن المحاولات الاستيطانية قد فشلت أمام الخطر الذي كان يشكله سكان المناطق المجاورة لطرابلس ، فأضطر (بيدرو نافارو) إلى اللجوء لسياسة اللين تجاه السكان وعرض عليهم التعاون وأفـرج عن حاكم المدينة السابق الشيخ عبدالله بن شـرف وأعاده من منفاه إلى طرابلس لتوظيفه فـي تهدئة السـكان (22) ، وكان النشاط الكبير الذي أبداه القراصنة الأتراك قد زاد من صعوبة الوضع وتعقيده بالنسبة للإسبان ، وكانت طرابلس تعاني أوضاعاً سيئة ففي سنة 1526 م كان الشيخ الذي وثق فيه الإسبان قد فـر من المدينة وانضم إلى الثوار في تاجوراء وترددت في أكثر من مرة شائعات خلال الفترة الواقعة من 1527م إلـى 1529 م عن إرسال حملات تركية ضد الإسبان في طرابلس (23) ، وتخوف الإسبان من أن يقوم الشيخ عبدالله بعد فـراره بتنظيم المقاومة في تاجوراء على نحو أفضل ، وكما توقعوا في الوقت نفسه ظهر الأسطول التركي العثماني علي سواحل مدينة طرابلس ، وحملتهم هذه المخاوف على حصر جبهة الدفاع في الميناء والقلعة التي حصنوها بأسـوار قوية ومدفعية ضخمة ، وقد استخدم الإسبان في ترميم وإصلاح الحصون حجارة أخذت من أسـوار المدينة التي لم يرممها الإسبان ؛ بل حطموا أجـزاءً منها ، وكان يحيط بالأسوار خندق عريض محفور ولم يكن أحد ليستطيع أن يلجأ إلى القلعة إلا بواسطة جسـر متحرك (24) ، ونتيجة لتوالي الأحداث الأوروبية والمحلية في طرابلس التي أذهلت الملك شارل الخامس وصرفته عن التفكير في التشبث بطرابلس الغرب ومنها الحروب الإيطالية 1527 م ، بالإضافة إلى شدة المقاومة في طرابلس (25) ، وفي الوقت نفسه شجعت انتصارات الأتراك سكان طرابلس الغرب على الاستنجاد بالسلطان سليمان لإنقاذ بلادهم من حكم الإسبان ، فأرسلوا وفدا الي القسطنطينية قابل السلطان وشـرح له ظروف طرابلس فتأثر السلطان بهم وعيّن مراد آغا لولاية ليبيا وأرسله في أسطول لغـزو طرابلس وإنقاذها من الإسبان ، ولما بلغ الأتـراك تاجـوراء أنزلوا بها جنودهم وشرعـوا في مهاجمة طرابلس (26)

وهنا يمكننا القول إن العهد الإسباني كان عهد ظلم وقهر وجوع على المدينة وسكانها ولم يُحدث الإسبان أي شيء إيجابي يُحسب لهم على الاطلاق ؛ بل إنهم زادوا الأوضاع سُـوءًا وعلى ما يبدو فإن كل الأحداث والظروف التي مرت قد أجبرت الملك الإسباني على التنازل عن مدينة طرابلس لفرسان مالطا أو فرسان القديس يوحنا وهو ما سيتم تناوله في المبحث التالي .

المبحث الثالث – فرسان القديس يوحنا (مالطا) في طرابلس الغرب :

لم يكن وضع الفرسان مريحا في إطار الأوضاع السياسية السائدة خـــلال النصف الأول من القرن السادس عشـــر ، فهم ينتمون إلى أمم مختلفة متحاربة أحيانا ، وكانوا منقسمين إلى ثمان لغات أو أمم : بروفانس (جنوب فرنسا) ، وإفرني (مقاطعة فرنسية) ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وأراجـــون (مقاطعة اسبانية) ، وكاستليا (مقاطعة إسبانية) وانجلترا ، وفي وسط الصراعات الجارية آنذاك كانوا يقدمون نموذجا لجماعة أخوية ؛ ولكنهم يواجهون أوضاعا متناقضة (27).

وعندما أرغم فرسان القديس يوحنا على التخلي عن جزيرة رودس بعد كفاح ضد السلطان سليمان ، يذكر (28) أن مرشد الفرسان الأكبر الأب (فيليب دي فيليه) قادهم إلى ميسينا ، ومن هناك انتقلت الفرقة العسكرية على التوالي إلى كوميس ثم إلى شيفيتا ، ثم إلى فيترب ، ومن ثم ذهب فرسان القديس إلى إيطاليا بدعوة من البابا (كليمنت السابع) ، وقد رأى رئيس المنظمة الأب فيليب أن يطلب من الملك شارل الخامس منحه جزيرة مالطا وقـــوزو ، لأنهم رأوا أنهما أنسب مكان لغزو البلاد الإسلامية .(29) ، ولم ير شارل الخامس في طلب هذه الجزيرة ما لا يتفق مع مصلحة الدولة والمسيحية ، فوجود قـــوة بحرية لها وزنها في البحر المتوسط في هـــذه الجزيرة سيحمي مستعمراته في صقلية ونابولي ، ولكنه وجد الفرصة المواتية للتخلص من مسؤولياته في الاحتفاظ بمدينة طرابلس التي تكلفه الكثير من الرجال والأموال ، فقرن تنازله عن مالطا بتحملهم مسئولية الدفاع عن طرابلس وحصنها وقلعتها(30)، وقد ترددت المنظمة في قبول العرض بإلحاق طرابلس إلى سيطرتها ، الأمر الذي كان شرطا ثقيلا مقرونا بمنح مالطا لهم ، وقد نصح المبعوثون الذين زاروا طرابلس المرشد الأكبر بعدم قبول هذه المهمة الباهظة ، فكان لا بد من الإذعان لإرادة الملك شارل وعدم إضاعة الفرصة ، وقد استغرقت المفاوضات مدة طويلة وفي يونيو 1530 م كان مندوبو المرشد الأكبر قد استلموا مالطا واتجهوا إلى طرابلس حيث استلموا مـــن (فرانشيسكو فلاسكيز) نائب الحاكم كشفا بالمدفعية الموجودة بها ، وسرعان ما وصلت إلى طرابلس سفينتان تحملان العتاد والمئونة وقافلة من الفرسان ، وفرقة من الجنود تحت قيادة (جاسباري دي سانجوسا) أول حاكم يوفد من المنظمة إلى طرابلس (31) ، ومن هنا بدأت تسمية فرسان القديس يوحنا تتغير تدريجيا إلى تسمية فرسان مالطا ، ويقول (32) إن الفرسان أبدوْا بعض النشاط منذ البداية فاستولوا على زنزور والمنصورية – صياد – والماية والحشان والزاوية وصبراتة ، وكانوا يجبـــون ضرائب هذه الجهات ويفرضون عليهم

المغارم ، واضطر أهل الجهة الغربية للخضوع ؛ لأنهم في طريق الجيوش التونسية التي كانت تأتي لنصرة الفرسان عن طريق البر ، وقد بعث أمير تونس آنذاك إلى والي طرابلس يطلب منه صداقة المنظمة ، وعقد معهم معاهدة صداقة ، وكان سلطان تونس مولاي الحسن يدعي حقوقا شرعية للسيادة على طرابلس ، وقد أبدى عدة محاولات لطرد الأتراك من تاجوراء وتسليمها إلى فرسان القديس يوحنا . (33) ، وتقع تاجوراء إلى الشرق من طرابلس علي مسافة ثمانية عشر كيلومتر علي شاطئ البحر ، وقد بلغت في تلك المرحلة أهمية خاصة باعتبارها ملجأ لكثير من الطرابلسيين الذين لم يخضعوا للفرسان ، وكان لها ميناء صغير وســور يحميها من الهجمات ، وقد حوّلها مراد آغا إلى حصن صغير منيع .(34).

وتوالي بعد (سانجوسا) في حكم طرابلس عشرة حكام آخـــرين انظر الملحق (1) ، وقد اهتم هؤلاء الحكام بصفة خاصة بترميم القلعة ومنهم لافيتا الذي اهتم بترميم القلعة وتحصينها ، وطلب من شارل الخامس أن يساعد المنظمة بالمال ، وأرسل سفير للملك الإسباني مرفق بالخرائط الخاصة بالأعمال التي يعتزمون القيام بها ، وقد أوصت المنظمة سفيرها أن يخبر الملك بأنه إن لم يساعدهم فإنهم سيضعون متفجرات لنسف القلعة (35)، ورفض الملك شارل الخامس اقتراح نسف القلعة وتدمير الميناء ، ونصح الفرسان بدلا من ذلك بتكثيف جهودهم في تحصين القلعة والدفاع عنها ، وكتب إلى نواب الملك بصقلية ونابولي يأمرهم بالدفاع عن طرابلس ، ووعدهم بالمساعدة (36) ، ويذكر لنا (37) أن مصاعب الفرسان لم تقف عند هذا الحدّ ، بل تجاوزته إلى ما هو أشد ، فقد صارت المنظمة تعامل من قبل دويلات الإمبراطورية كجزء مستقل تخضع صادراتها وارداتها لنظام الضرائب الجمركية العامة ، فقد فرض نائب الملك في صقلية الضرائب علي كل ما تشتريه المنظمة من حبوب وادوات بناء واسلحة وغيرها.

وأمام كل الصعاب بدأت المنظمة بالعمل على تحصين المدينة ورممت الأسوار والقلاع الدفاعية وتحمل أبناء المدينة مسؤولية البناء والترميم تحت سياط الفرسان ، وكان تصرف فرســـان مالطا يُوحي بأن التغييرات التي يحدثونها في المدينة دلالة واضحة على أنهم يسعون للاستقرار في مدينة طرابلس بصورة دائمة وجعلها مقرا دفاعيا لهم ، وبدأ الفرسان تحركاتهم العسكرية البحرية والبرية منها ولاحقوا الأهالي بقصد إرهابهم وتهجيرهم منها ، ولم يستطع السكان التحمل ففروا إلى تاجوراء . (38).

لقد كان تاريخ طرابلس في هذه الفترة هو تاريخ القلعة كما يذكر (39) حيث تتخذ الحياة في القلعة شكل الحياة الذي التزم به الفرسان ، وهو طابع يجمع بين الناحية الدينية

والعسكرية ، لذا فإن الحاكم كان يحرص على الحصول على قَسَـــم الولاء له وللمنظمة من جميع الضباط والعاملين في خدمتها ، كما كان يتفقّد أسلحتهم ويقوم بالتأكد من تأدية مراســـم العبادة في كنيسة القلعة ، وكان يجـــري دفع مرتبات الجند مرة كل أربع أشهر، ويتضـــح لنا أن القلعة كانت في حالة طـــوارئ دائمة ، وكانت تعيش حياة مضطربة مشـــوبة بالخوف وعنصر والمفاجأة وتوقّـع هجوم المواطنين والأتراك عليها ، ومن ضمن الإجراءات المتخذة حظـر الإبقاء علي عدد كبير من الأســـري بالقلعة ، ومنع دخول العرب والأتراك اليها إلا للضرورة على أن يتركوا أسلحتهم وخيولهم خارجا ، وإنشاء متجر خارج القلعة لبيع المواد الغذائية لعامة الناس ، وتشديد الحراسة علي الأبواب نهارا والأســـوار ليلا ، وعدم فتح بابي المدينة البحري والبري في وقت واحد ، وحظر خروج الجند من القلعة بغير سلاح .

كانت الفترة التي أعقبت عام 1545 م فترة فاصلة للسلام في أوروبا ، لكنها كانت أسوأ فترة داخل منظمة فرسان مالطا بسبب التنافس الداخلي بينهم ، وفي عام 1548م صوتت الأغلبية المناهضة للإسبان في الدير بالتخلي عن جزيرة مالطا ، ونقل نفسها إلى طرابلس ، وكانت الدوافع وراء هذا القرار سياسية بالكامل . (40)

أما بالنسبة للوضع الحربي داخل طرابلس فقد قاد(لافاليتي) حاكم طرابلس في تلك الآونة عدة حملات متكررة ضد مـــراد اغا في تاجوراء في الفترة من 1546 – 1549 م ، ومن ضمنها حملة مفاجئة خرجت أثناء الليل للهجوم علي تاجوراء عن طريق البر تدعمها سفينتان قامتا بإنزال بعض المدافعين الذين توغلوا حتي البرج الذي يحمي ميناء تاجوراء الصغير ، وأشعلوا النار في إحدى مراكب مراد آغا ، وعند النهار تابعهم مراد آغا ولاحق جيش المنظمة وقد أســـر في المعركة التي نشبت بينهم الفارس (مارزيليا) ، وقد تزايد القلـــق من قبل المنظمة حول الدفاع عن طرابلس وتوجّـــه المرشد الأكبر لطلب المعونة . (41) .

وفي هذا الوقت توفي (خير الدّين بربروس) في القسطنطينية ، وترك بعد موته تلميذا جديرا بأن يرث شجاعته وإقدامه واسمه (درغوت باشا) ، حيث توجه درغوت خـــلال تلك الفترة إلى القسطنطينية وأوضح للسلطان كيف أن الاستيلاء على وهران وبجاية وتونس من جانب إسبانيا ، وسيطرة هيئة فرسان مالطا على طرابلس ومالطا من شأنه أن يجعل السيادة للمسيحيين في سواحل شمال افريقيا ، فأقتنع السلطان سليمان بكلام درغـوت ، وبعد التشاور مع ديوانه عهد إلى الأميرال سنان باشا بقيادة أسطول كبير لينتزع مالطا من هيئة الفرسان ، وإذا لم يستطع أن يحقّق هذه الغاية فهو

مفوض للاستيلاء على طرابلس وكان درغوت تحت قيادة سنان باشا باعتباره أعلى رتبة . (42)

ومن خلال ما سبق يتضح لنا أن منظمة فرسان مالطا أو فرسان القديس يوحنا قد فشلت في سياستها في طرابلس واتبعت ساسة الإسبان من ناحية الضرائب وتهجير الأهالي وعدم العناية بالمدينة وتطويرها ولم تتعظ من العشرين عاما الذين قضاهم الإسبان في نفس المدينة مما جعل الأهالي لا يتوقفون علي مهاجمة فرسان الهيئة وطلب المعونة من الأتراك العثمانيون من أجل تخليصهم من الفرسان.

المبحث الرابع – النجدة العثمانية (التركيـــة) لطرابلس الغرب وتخليصها من حكم وسيطرة فرسان مالطا :

بداية مرحلة الضعف والهزيمة لمنظمة الفرســـــان : بسبب المصروفات علي التحصينات والصيانة ، فقد تكبدت المنظمة ديونا كثيرة ، ولكن حاكم طرابلس لم يكن راضيا علي ذلك ، ففي رأيـــه أن القلعة أضعف من أن تقاوم ليس فقط هجوما عنيفا ؛ ولكن حتي هجوما سهلا ، ولكي لا يعاني المجلس من إهانة فقدان تلك القلعة بعد سماع شكاوي (بوتيغيلا) بشـــأن طرابلس ، وافـــق المجلس على اعتراضات (براكومنتي) ، وتقـــرّر إرسال فارس إلى إسبانيا ليشـــرح الوضع برمته للإمبراطور(43) ، ولم يكن أمام الملك شارل إلا أن يفي بوعوده للمنظمة ، وقام بحملة مشتركة مع البابا لجمع الأموال اللازمة للترميم والتحصين ، حيث تـــم جمع مبلغ من المال قدره سبعون ألف سكود ، وقد وضـــع هذا المبلغ في السفينة (كاثرينيتا) وأُرسله الي المنظمة ، ولكن هذا المبلغ تحـــول للمسلمين ؛ إذ انه لم يصل قط إلى أيدي المنظمة فقد استولي البحار التركي درغوت على السفينة قبل أن تصل إلى مالطا . (44).

الاتراك العثمانيـــــون وطرابلس : بدأ درغوت باشا أعماله في الشمال الأفريقي بطرد الإسبان من سوسة والمنستير وصفاقس ، وفي سنة 1550 م احتل المهدية ، وفي تلك الأثناء حاول مراد آغا حاكم تاجـــوراء أن يدخل لطرابلس ؛ ولكنه لم ينجح فاضطر إلى انتظار نجدة الأسطول العثماني (45) ، وقد كان الأسطول التركي العثماني في ذلك الوقت بقيادة سنان باشا يحاصر جزيرة مالطا التي كانت معقل لفرسان القديس يوحنا ، غير أن سنان باشا عجز عن فتحها بسبب قـــوة تحصينها ، فاتجه إلى طرابلس لمساعدة مراد آغا في طرد هيئة الفرسان (46) .

ويذكر (شارل فيرو) (47) أن المرشد الأكبر (يوحنا الأوميدي) كان قد ترك طرابلس بدون دفاعات ، بل أن الاوميدي قد زاد الوضـــع سُوءً فرفض إرسال النجدات إليها ،

واكتفي بأن ترجي سفير فرنسا لدى الأستانة (رامـــون) الذي كان مارّا بجزيرة مالطا أن يحاول اقناع الأتراك بصرف النظر عما عقدوا العزم عليه ضد طرابلس . وذهب السفير رامــون إلى سواحل طرابلس وقابل سنان باشا ، إلا أن الهدايا التي قدمها للباشا وفصاحة لسانه لم تجديا نفعا ، وأعتذر له سنان باشا بأنه لا يستطيع مخالفة أمر السلطان (48) ، ولم تتأخر الأنباء باقتراب الأسطول العثماني وقد أرسلت المنظمة نهايــة إبريل 1551م إلى طرابلس (غاسباري دي فالييس) وكان مارشالا في المنظمــة ، مجدّين له نفس التوصيات ، مُلحّين عليه بالتزام النظــام والعادات وحماية القلعة وحراستها ، وفي بداية يوليو تواترت الأنباء بوصول الأسطول التركي إلى طرابلس فأرسلت المنظمة بصفة عاجلة إلى طرابلس (غوليلمو كوبير) مع خمسة وعشرون فارسا ، وفرقة من الجنود الذين جندوا في مسينا بقيادة كلابريزي ، وكان كوبير مكلفا بأن يتولي مهمام نائب الحاكم ، أما السفن التي حملت الجنود إلى طرابلس فقد نقلت عند عودتها النساء والأطفال الذين رأى الحاكم أنه من المناسب تســفيرهم من طرابلس (49) ، وعن حصار طرابلس يقول كوستانزيو بُرنيا (50) إن الأســطول التركــي عندما حاذى الساحل نحــو طرابلس توقّف عند زوارة حيث نــزل سنان باشا وجنوده، وتابع الأســطول سيره نحو طرابلس حيث ألقى مراســيه في تاجوراء ، أما مراد آغا حكم تاجوراء الذي كان قبل أيام من ذلك قد استولي على مركبي قرصنة كانا يحملان المئونة والعتاد من مالطا إلى حاكم طرابلس (دي فالييس) ، فذهب لاستقبال سنان باشا عن طريق البر ورسم الاتفاق مع درغوت باشا خطة العمل للاستيلاء علي طرابلس ، وعندما بلغوا مشارف طرابلس بعث سنان باشا أحد الفرسان إلى الحاكم دي فالييس يطلب منه الاستسلام .

وكانت حامية طرابلس كما ورد في الحوليات الليبية لا تزيد عن ثلاثين فارسا من فرسان مالطا ، وستمائة وثلاثين جنديا من المرتزقة والصقليين ، وكانت القلعة وحصن (المندريق) مسلحين بستة وثلاثون قطعة مدفعية وبقنابل رمانية وبصهاريج تلتهب فيها النيران ، وكانت توجد مؤن في المخازن ، وكان من الممكن أن تصمد مقاومة الفرسان ، غير أن الأمر يتطلب امتلاك قوات موزعة توزيعا أفضل وتتمتع بهمة أكبر للقتال ، غير أن دي فالييس قد ذهبت جميع مساعيه أدراج الرياح بسبب تقاعس جنوده وجبنهم (51).

وصل أخــــيرا الأسطول العثماني المتكوّن من حوالــي مئة وخمسين سفينة ، وعشرة آلاف جندي قبالة مدينة طرابلس ، وعندما رفض الحاكم دي فالييس الاستسلام قاد سنان

باشا الهجوم علي طرابلس برا ، بينما تولـــى درغوت قصف المدينة من البحر ، وقد بدأت القوات العثمانية الهجوم في يوم 8 أغسطس واستمرت في حصارها وقصفها للمدينة إلى غاية يوم 14 أغسطس (52).، وعمت الفوضى بين جنود الفرسان، وألحـــوا علي ضباطهم في طلب الصلح ، وطلب بعضهم السفر إلى مالطا ، واعتقد حاكم المدينة فاللي ران سقوط طرابلس في يد الأتراك أمر لا بد منه ، فأرسل إلى سنان باشا يطلب منه المفاوضة على الصلح (53) . وبعث الحاكم إلى سنان باشا رجلا يبلغه عزمهم على الاستسلام شريطة أن لا تمس أموال وأرواح الأهالي بأذىً ، وأن يسمح لهم بالخروج والسفر إلى مالطا وأن تهيأ لهم السفن اللازمة لذلك ، واستدعي سنان باشا قائدهم وحضر دوويليه لمعسكر الباشا الذي عنفه واستبقاه عنده ، وكان الباشا قد اشترط أن يقوم الفرسان بتسليم أسلحتهم وعتادهم وأن يقوموا بدفع تكاليف الحملة التي قام بها للسيطرة على طرابلس ، وفي يوم 15 اغسطس فُتحت أبواب المدينة (54) . وخرج سكان المدينة من النصارى ، ودخل درغوت باشا وسنان باشا ومعهما مراد آغا للمدينة يوم 16 اغسطس 1551 م ، معلنين عن انتهاء السيطرة المسيحية الإسبانية علي طرابلس وعودتها مدينة إسلامية ، وسمح سنان باشا يوم 18 أغسطس للفرسان بمغادرة المدينة علي متن سفن فرنسية وكان عددهم حوالي ستمائة . (55)

وعنـــدما وصل حاكم طرابلس فالييس إلى مالطا كان مليئا بالأعذار ، وقد ألقى باللوم علي هوميدس لعدم انفاق المزيـــد من الأمـــوال علي تحصين طرابلس ، وألقى باللوم ـ أيضا ـ على قوات كالابريزي التي كانت سيئة في القتال ويبدوا أن قيادته لها التي دامت ثلاث سنوات لم تحسّنها فتمردت أثناء الحصار . (56)

ومهما كان الدور الذي قام به الأســـطول العثماني في تحرير طرابلس لا يمكن تجاهـــل دور المقاومـــــة المحلية في تحريـــر طرابلس حيث كان شـــيوخ طرابلس ورجالها علي رأس المقاومة في تاجوراء ، ومنـــعوا فرسان مالطا التموين والسلاح القادم من مالطا ، وبعد تحرير طرابلس واستيلاء العثمانيين عليها قام سنان باشا بتعيين مراد آغا أول حاكم عثماني على مدينـــــة طرابلس (.57)

وفي النهاية لا بد أن نذكر أن منظمة فرســـان مالطا قد حـــاولت مـــرة أخرى نهاية سنة 1551 م استرجاع المدينـــــة ، ووجّهت حملة في سنة 1552 م ، نحو زوارة وساندت الحملة التي قامت بها القوي المسيحية المتحالفة سنة 1559 – 1560م تلك الحملة التي كانت تستهدف طرابلس ، وانتهت نهاية تعيسة(58)

الخاتمـــــــــــة :

مما تقدّم يتضح لنا أن هناك أسباب عديدة جعلت حكم فرسان مالطا لطرابلس لا يتجاوز العشرون عاما ، ومن ضمن هذه الأسباب وربما أهمها هي أن الحكم لم يتجاوز مدينة طرابلس وهذا الأمر جعل المقاومة تتكوّن بالقرب منها في بلدة تاجوراء والبلدان المجاورة لها الأمر الذي سبب الكثير من المشاكل وعدم الاستقرار للمنظمة ، بالإضافة إلى محاصرة المدينة بقوات كبيرة من الجيش التركي من شأنه أن يقطع المـــدد علي فرسان المنظمة المحصورين داخل القلعة ، ومما لا شك فيه أن سياسة ترميم القلعة والحصون وترك المدينة بدون أســـوار وبدون حماية قوية كان من أهـــم الأسباب التي أدّت إلى سقوطها في يد الأتراك ، فالمنظمة لم تملك الأموال الكافية لإعادة بناء الأسوار التي قام بهدمها الإسبان قبلهم .

ومن الجدير بالذكر هنا أن الإسبان ومن بعدهم فرسان القديس يوحنا لم يتركوا أثرًا واضحا في طرابلس عدا بعض التحصينات في القلعة التي كانت من أعمالهم ، ولا يوجد شيء آخـــر يذكر ينسب للفرسان بخصوص طرابلس .

كما يُلاحظ أن المنظمة لم تكن مهيأة لا ماديا ولا معنويا للاستقرار في طرابلس حيث أنها فُرضت عليهم من قبل الملك شارل الخامس مع جزيرة مالطا ، لذلك فالمنظمة لم تهتم كثيرا لفقدانها ، كما أن طرابلس كانت تحتاج منهم الكثير من الأموال من أجل تحصينها والسيطرة عليها سيطرة تامة .

الملحـــــــــــق 1 :

أسماء الحكام التابعين لمنظمة فرسان القديس يوحنا الذين حكموا طرابلس خلال عشرون عاما :

1-جاسبار دي سانجوسا 1530-1531م .
2-برنادينو ماكادو 1531-1532م .
3-أوريليو بوتيجلا 1532 -1533 م .
4-غارسيا كورتس 1533- 1535 م .
5-جورج سكلينج 1535 – 1537 م .
6-اوريليو بوتيجلا 1537-1539 م (المرة الثانية)
7-هرناندو دي براكامونتي 1539-1544 م .
8-كريستوفانو دي سوليس فرفان 1544-1546 م
9-جيوفاني لافاليتي 1546-1549 م .
10-بيترو نوني سدي هيريرا 1549-1551
11- غاسباري دي فالبيس ابريل 1551 اغسطس 1551 م .

اتوري روسي ، ليبيا منذ الفتح العربي حتي سنة 1911 ، ص 214.

الهوامـــــــــــش :

1- جان كلود ، 2001 ن ص 54
2- maturin , 1983 , p 255
3- روسي ، ايتـــوري ، 1985م ، طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا ، تحقيق : خليفة التليسي ، طرابلس : المنشأة العامة للنشر ، ط 2 -ص 189
4- سميت ، جوناثان رايلي ، 1989 م ، الاسبتارية – فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص ، ت : صبحي الجابي ، دمشق : دار طلاس للنشر ، ط 1 .، ص7 .
5- روسي ، 1985 ، ص 49)
6- سميث ، 1988 ، ص 7) .
7- الفاضلي ، فتحي ، 1992م ، جذور الصراع في ليبيا . ، ص32 -33 .)
8- ابن غلبون ، أبي عبدالله بن محمد ، 2004 م ، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار ، تصحيح : الطاهر الزاوي ، لبنان : دار المدار الاسلامي ، ط 1 .، ص 148 .
9- روسي ، 2009 ، ص189)
10- عامر ، 1999 ، ص 153)
11- النيهوم ، 1977 ، ص 233)
12- الباروني ، عمر محمد ، 1952م ، الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس ، طرابلس : مطبعة ماجي .، ص 75-76 .
13- نصار ، 2018 ، ص 32).
14- بازامة ، محمد مصطفي ، 1965 م ، ليبيا في عشرين سنة من حكم الإسبان 1510-1531م ، طرابلس : مكتبة الفرجاني .، ص 100)
15- بُرنيا ، 2009 ، ص 37 – 38)
16- ابن غلبون ، 2004 ، ص 144 – 145)
17- النيهوم ، الصادق ، 1977م ، تاريخنا من التحرير الإسلامي حتي القرن الهجري العاشر ، سويسرا : دار التراث ، ص 231) .
18- عامر ، 1999 ، ص150)
19- علاء الدين ، ابراهيم ، 2014 م ، اوضاع ليبيا ما بين الاحتلال الاسباني والنجدة العثمانية ، 1510-1551م ، مجلة دراسات تاريخية ، العراق ، ع 127-128 .، ص331)
20- عامر ، 1999 ، ص 152)
21- التليسي ، خليفة محمد ، 1997م ، حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والاجانب ، طرابلس : الدار العربية للكتاب ، ط3 . ، ص 70)
22- عبيد مصطفي ، 2015 م ، طرابلس الغرب من الاحتلال الاسباني الي دخول العثمانيين 1510-1551 م ، مجلة الاداب والحضارة ، الجزائر ، ع 18 . ص 329)
23- روسي ، 2009 ، ص 188 – 189)
24- علاء الدين ، 2014 ، ص 336) .
25- نصار ، فتحي حسن ، 2018 م ، ليبيا من الاحتلال الاسباني حتي الاستقلال 1510-1951 م ، بنغازي : دار الكتب الوطنية ، ط1 .، ص 31)
26- رشدي ، راسم ، 1953م ، طرابلس الغرب في الماضي والحاضر ، طرابلس ، ط ، ص 88.
27- رشـــــدي ، 1953 ، ص 88.
28- زليتنر ، جان كلود ، 2001 م ، طرابلس ملتقي أوروبا وبلدان وسط افريقيا 1500-1795 م ، ت : جاد الله عزوز الطلحي ، مصراتة : الدار الجماهيرية للنشر ، ط 1 .، ص 58
29- فيرو ، شارل ، 1994 م ، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتي الغزو الايطالي ، ت : محمد الوافي ، بنغازي : منشورات جامعة قاريونس ، ط 3 .، ص 87)
30- ابن غلبون ، 2004 ، ص 148 -149)

31- بازامة ، 1965 ، ص 103) .
32- روسي ، 1985 ، ص 52-53
33- ابن غلبون ، 2004 ، ص 152
34- روسي ، 2009 ، ص 196
35- برنيا ، كوستانزيو ، 2009 م ، طرابلس من 1510 الي 1850 ، ت : خليفة التليسي ، تونس : الدار العربية للكتاب ، ، ص 42)
36- عريبي ، محمد الطاهر ، 1977م ، وثائق السراي الحمراء ، طرابلس : الدار العربية للكتاب .، ص 18)
37- (Andrew ,1970 , p 371
38- الباروني ، 1952 ، ص 89
39- عامر ، محمود علي ومحمد خير فارس ، 1999 م ، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى – ليبية) ، سوريا : منشورات جامعة دمشق .ص 155
40- التليسي ، 1997 ، ص 74
41- (sire , 1996 , p 66
42- روسي ، 1985 ، ص66
43- بُرنيا ، 2009 ، ص 43- 48
44- Andrew , 1970 , p 370
45- عريبي ، 1977 ، ص19
46- ابن غلبون ، 2004 ، ص 159
47- نصار ، 2018 ، ص 34 .
48- 1995 ،شارل فيرو ص 91 -92
49- سامح ، عزيز ، ادهم ، عبدالسلام ، 1969 م ، الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ، بيروت : دار لبنان للطباعة ، ط 1 .، ص 51
50- روسي ، 1985 ، ص 71) .
51- كوستانزيو بُرنيا (2009 ، ص51 .
52- فيرو ، 1994 ، ص 92 .
53- جوامع ، 2021 ، ص 217 .
54- ابن غلبون ، 1994 ، ص 160 .
55- سامح ، 1969 ، ص 51 -52
56- عبيد ، 2015 ، ص 335 .
57- جوامـــع ، سالم ، 2021م ، طرابلس الغرب من انهيار الحكم القفصي الي الفتح العثماني قراءة تحليلية ، المجلة الجزائرية للابحاث ، الجزائر ، ع 1 ، مجلد 4 .ص 217)
58- روسي ، 1985 ، ص80 .

*-النظام البندكتي : هو نظام القديس بنديكت ، وهو نظام ديني كاثوليكي حيث يحافظ كل مجتمع فردي وعلى استقلاليته الخاصة ، بينما توجد المنظمة ككل لتمثيل مصالحها المتبادلة . ar.m.wikipedia.org

**-النير : العبودية ، الظلم وقيوده .

مصادر ومراجع أجنبية استعانت بها الباحثة :

-Ballon , maturin m , 1983 , The story of malta , U.S.A , The Riverside Press

Sire ,H.J.A , 1996 , The Knights of malta , U.S.A

, yale university press

– vella , Andrew , 1970 , The order of malta and defence of Tripoli 1530-1551 , www.um.edu.mt